

د. بوغازي الطاهر

جامعة تلمسان

تمهيد :

يعالج العنف، عادة في المدارس و الأبحاث الاجتماعية و الإنسانية من خلال أشكاله التعبيرية، فهو مظهر من مظاهر الصراع الخفي بين، من جهة الفرد ونفسه، و من جهة أخرى، بين الفرد و الآخرين.

يقترح البحث الحالي معالجة الظاهرة من مصادرها الكامنة، أي معالجة الخصائص التربوية و النفسية المساهمة في إحداث سلوك العنف بحيث أن زيادة الإندفاع (العنف) عن حده، أو نقصانه (التكيف) يؤثران في سلوك الفرد حسب التكوينات التربوية و النفسية. الواقع أن ظاهرة العنف هو سلوك إنساني ولّدته أوساط نفسية و تربوية مكونة من الأسرة، و المدرسة، و المؤسسات الثقافية المنتشرة في المجتمع، و من هنا تطرح المشكلة كالتالي :

ما هي أشكال تربية الطفل؟ و ما هو النوع المسبب ، أكثر من غيره لظاهرة العنف؟ ثم ما هي آثار أنواع الأسلوب على المصادر النفسية الباعثة على العنف ؟

نلاحظ، إذن أن البحث الحالي يدرس المكونات التربوية، و علاقتها بإحداث سلوكات نفسية هي سبب ظهور العنف في سلوك الفرد.

لا شك أن الدراسات التربوية و النفسية، النظرية منها و التطبيقية، جعلت البحث يفتح على بعض المؤشرات الغير مرئية ، المكونة لمصادر العنف، و هي التي سيعالجها البحث الحالي .

الأساليب التربوية :

يتعرض الفرد منذ ولادته إلى أساليب تربوية تختلف باختلاف المستوى التعليمي، والاجتماعي، والثقافي للأسرة⁽¹⁾.

و يعتبر المستوى التعليمي للوالدين أهم عنصر في شخص المربي، ثم يأتي في الدرجة الثانية المستوى الاجتماعي الذي يكمل عمل، وتأثير المستوى الأول. أما المستوى الثقافي، كمتغير مستقل، فيشمل كل المؤسسات التربوية والثقافية المؤثرة للفعل التربوي. و تأتي في الدرجة الثالثة، باعتبار أن تأثيرها سيبدأ بعد أن يكون الفرد قد تميز في تكوينه النفسي، و التربوي خلال مرحلة التربية الأولى، و التنشئة الاجتماعية للأسرة، أي سيظهر تأثير المؤسسات الثقافية في فترة المراهقة، أو البلوغ على الأقل.

أ- دور الأسرة :

يقصد بدور الأسرة، مواقف، واتجاهات الوالدين نحو تربية الطفل، تتأثر تلك المواقف و الاتجاهات بالمستوى التعليمي، و الوسائل الاجتماعية، الإقتصادية، و الممارسات التربوية اليومية.

تعد متغيرات الوسط الأسري مشكلا حادا بالنسبة للباحث⁽²⁾ عندما يريد دراسة أثرها على سلوك الأطفال. فالحوادث في هذا الوسط لا تنشأ بالصدفة، و إنما مرتبط بعضها ببعض عن طريق قواعد، يمكن أن تكون واضحة، كالسلوكات الظاهرة، أو ضمنية كالعادات، و التقاليد المتضمنة في القيم، و واضح أن السلوك الظاهر هو نتيجة للعادات السلوكية التي تعلمها الطفل من أسرته، و التي تعود من خلالها معرفة نتائج سلوكه : الإستحسان أو الإستهجان. فالطفل يعرف نوع السلوك الذي يجلب له رضا الوالدين أو سخطهما، و من ثم تتكون لديه نمطية السلوك من تراكم عمليتي الإستحسان أو الإستهجان

أدى هذا التصور لأثر دور الوسط الأسري إلى اتجاهين نظريين في البحث التربوي⁽³⁾:

1- الاتجاه الأول : اتجاه ثقافي مرتبط بالقيم الخاصة بمختلف الفئات الاجتماعية،

وأثره على العنف.

2- اتجاه اقتصادي مرتبط بالعوامل المادية للأسرة .

1-1 أثر القيم :

تشير المعالجة التربوية للعلاقة بين القيم و الأسلوب التربوي حول علاقة ثقافة الأفراد بالمجتمع في اتجاه الإستعداد لتكوين السلوك السوي، و السلوك غير السوي (العنف). فالقيم كما يعرفها حلمي المليحي : "عبارة عن موجّهات إدراكية دافعية موجهة لسلوك الفرد، و هي مكتسبة تجمع خبرات الفرد السابقة كما تهيئ الفرد لاكتساب خبرات و معلومات جديدة"⁽⁴⁾.

تنشأ القيم عن طريق التنشئة الإجتماعية الأسرية ، حيث تزود هذه الأخيرة الأفراد بنوع اتجاهها الثقافي، فتؤثر فيهم، يعني أن القيم تتكون عن طريق التعلم. و هكذا تصبح ذات تأثير موجه لسلوكات الفرد أمام أمور الحياة المختلفة، فالقيم ، إذن تختلف من وسط أسري لآخر، نتيجة لاختلاف نوع التنشئة الإجتماعية، و اختلاف الثقافة بوجه عام.

تعمل القيم على تكوين الاتجاهات و المواقف، فتتضح في السلوكات و الأحكام لدى أفراد المجتمع. و قد فسر كوهن العلاقة بين القيم و الطبقة الإجتماعية عن طريق دراسته لخصائص المهنة، و ذلك لدى مختلف أفراد المجتمع، و استطاع أن يوضح نوع العلاقة فيما يلي⁽⁵⁾:

أ- إن معالجة القضايا لدى الأفراد الذين يحتلون مراكز إشرافية في المجتمع تتم عن طريق العلاقات الفردية، سواء تعلق الأمر بالأفكار أو المعاني. بينما تتم هذه المعالجة للقضايا لدى الأفراد الذين يحتلون مراكز تنفيذية عن طريق الملموس، فينشأ الصراع (العنف).

ب- تتميز الفئات ذات المراكز الإشرافية بالمبادأة و المبادرة، بينما تتميز الفئات المنفذة لأوامر بتنفيذ الخطط المرسومة من طرف الغير.

ج- إن المطالبة بالمساواة لدى الفئات الذين يحتلون مراكز عليا في المجتمع (الذين لهم مستوى تعليمي عالي) تنبع من فردياتهم؛ بينما تدخل المطالبة بالترقية و المساواة لدى الأفراد المنفذين في إطار الإحتجاجات الجماعية و السلوكات الفردية المشينة.

و السؤال المطروح الآن هو إلى أ يحد تنعكس هذه القيم الثقافية على سلوك الأطفال داخل الأسر؟ بمعنى هل يمكن أن نتحدث عن علاقة سببية بين وظيفة الأب و سلوك الطفل في البيت؟ أي هل كلما كان الأب يشغل وظيفة تنفيذية كان ابنه في البيت طائعا و منفذا لأوامر الغير مثلاً؟ و بالتالي يصبح بناء الوسط الأسري، كما سنوضحه فيما بعد يحمل صفة "التصلب" ، و بالعكس كلما كان الأب يشغل وظيفة إشرافية، أو صاحب أعمال حرة، يجد الطفل نفسه في وسط عائلي "مرن" ؟

من خلال هذا الشكل المقترح من طرف كوهن :
ظروف العمل ← القيم ← الممارسات التربوية، يمكن أن نستخلص العلاقة المقابلة كالتالي :

ظروف الوسط الأسري ← الممارسات التربوية ← القيم .
بمعنى آخر يمكننا القول بأن القيم الخاصة بالتربية تخضع لعقلنة الممارسات التربوية المصبوغة بظروف حياة الأسر، و بظروف مهنة الأي.

لقد بدأ الإهتمام بالبحث في أهمية القيم الثقافية في الميدان التربوي بعدما اتضح أن مشكلة الانحراف في السلوك التسرب المدرسي، العنف النجاح او الفشل في الحياة العامة مرتبط بنوع القيم التي يحملها الأفراد⁽⁶⁾.

فقد لاحظ الباحثون في بريطانيا و فرنسا على الخصوص ، أن مشاكل الطفل السلوكية، العلائقية و المدرسية منها مرتبطة بالفئات الاجتماعية و يظهر السلوك الشاذ ، و المنحرف، لدى الأفراد المنتمين إلى الأوساط الفقيرة في المجتمع مهما تساوت فرض التربية و التعليم، بحيث يشجع أطفال الفئات العادية أطفالهم على قيم المنافسة، و النجاح، و العمل الحر، و الإستقلالية، بينما بفضل آباء الفئات الاجتماعية الضعيفة عدم مراقبة أعمال أبنائهم، و السماح لهم بالتحرك أينما، و كيفما شاؤوا ، و هي قيم تؤدي في الأخير إلى الإهمال، و التواكل، و التقاعس عن العمل.

2-2 الاتجاه الاقتصادي :

اهتم البحث التربوي بدراسة العلاقة بين العوامل الاقتصادية للأسرة و العنف بطرح السؤال التالي، هل تؤدي ظروف الحياة الاقتصادية المتدنية للأفراد إلى العنف؟ و جاءت بعض الإجابات في اتجاه هذا السؤال.

قبل البدء في تحليل هذا البعد، يجب الإشارة إلى الآثار النفسية الاجتماعية التي يتركها الضغط الاقتصادي المحف على الطفل .

أ- إن انخفاض الدخل يؤثر على التغذية الضرورية و الكافية لنمو الجسم نموا طبيعيا، إن عدم توفر الغذاء الكافي يؤثر على العمليات العقلية و يؤدي إلى الضعف، فيعوق الطفل في تأدية أعماله اليومية .

ب- إن ضغط المستوى الاقتصادي يترك أثرا واضحة على نفوس الأطفال الحرمان والشعور بعدم الإطمئنان ، و الضغط اتجاه الآخرين .

ج- كثيرا من الأفراد، وخاصة الأطفال يشكون من تصور الإمكانيات المادية التي تعد أساسية لكفاية حاجاتهم الضرورية، نحو المكان الخاص للنوم، و الدراسة أو المال للإنفاق الشخصي.

هذه الأسباب كما يراها عزت، حجازي تدفع بعضهم إلى "التفكير في السرقة، أو البحث عن أي عمل في وقت مبكر، و ما ينجر عن ذلك من مرافقة المنحرفين" (7).

إن الوصول إلى مرحلة العنف لدى الأسر الفقيرة من وجهة النظر الاقتصادية أمر طبيعي، و هذا ما أكدته كل من (8) : هيمن Hyman ، 1953 و برسون Persons 1954 ، و باندكس 1959، فالفئات الفقيرة تدفع بأطفالها إلى الخارج بحثا عن موارد للعيش مما يضطرهم إلى استعمال كل الوسائل الدفاعية، من غش، و سرقة ، و شجار ، وقذف . وتجد هذه السلوكات صدى لها داخل الأوساط الأسرية، بين الأطفال بعضهم البعض، و بين هؤلاء و أمهاتهم على الخصوص (9).

و يرى لوي لوقران L. L. grand : "المدرسة مهما كانت مؤطرة تأطيرا جيدا لا تستطيع أن تصل إلى أهدافها التربوية إذا كان الأطفال الذين يؤمنون يتعرضون إلى القساوة التربوية في البيت (يقصد المحر القيمي والاقتصادي)" (10).

نستخلص من الأبحاث التربوي المرتبطة بالجانب القيمي والاقتصادي للأسرة في علاقة هذه الأبعاد بظاهرة العنف أن المكونات الثقافية (القيم) للوالدين تلعب دورا خطيرا في توحيد سلوك الأطفال. و قد تحدث البحث في هذا الصدد عن ثلاثة أساليب تربوية تهيمن على الأسرة، وهي على التوالي: الأسلوب المتصلب، الأسلوب اللامبالي، الأسلوب المتسامح وقد أظهرت آثار هذه الأساليب على العنف في دراسة أكاديمية (11).

كما أن الجانب الاقتصادي يؤثر من جهة في الأسلوب التربوي و يظهر مرحليا مع الفئات الفقيرة من سلوكيات أطفالهم المنحرفة.

ب- الأساليب التربوية والعنف :

إن الآثار التي تتركها قيم الأفراد على سلوك الأطفال، وكذلك العامل الاقتصادي، أحدث في الدراسات انعكاسات سلوكية ظهرت خاصة في "سوء التكيف" حيث نعتبر في هذا البحث، أن سوء التكيف هو التعبير النفسي لمظاهر العنف، و سيظهر هذا السلوك في علاقته بالأساليب التربوية السابقة الذكر : الأسلوب الصارم على الخصوص.

و سوف نستعرض، فيما يلي أشكال سوء التكيف من خلال مظاهره النفسية، ولكن قبل ذلك يجب التعرف على معنى سوء التكيف.

يعرف كمال الدسوقي سوء التكيف بأنه : "عدم القدرة على تخطي عقبات البيئة، أو التغلب على صعوبة المواقف" (12). ينطوي التعريف على الحالة النفسية للفرد إزاء العقبات التي تطرحها ظروف الحياة، وطبيعة العلاقات بين الأفراد، فالبينة بالإضافة إلى كونها مصدرا لإشباع الحاجات المادية والمعنوية تعتبر أيضا موقعا لاختبار الفرد لقدراته ومهاراته الفكرية والوجدانية، فإذا اصطدمت المصالح بين الأفراد سيؤدي ذلك إلى سوء التكيف، فتبدأ أولى مظاهر العنف في البروز، اعتداء لفظي، إشارات إذلال... وغيرها، ففي هذه الحالة يكون

سوء التكيف راجع إلى تدني قدرات الفرد، و يجمل كمال الدسوقي سوء التكيف في الأبعاد التالية (13):

1- دور القدرات : الصراع بين الرغبة و عدم القدرة، و يظهر في العوامل الجسمية و الفكرية، كأن يكون العمل الذي يقوم به الفرد أعلى مة قدراته، أو لا يحب العمل الذي يفرض عليه، أو تكون اتصالاته الإجتماعية ضعيفة، عدم وجود حوافز، و أنشطة مناسبة للقدرات.

2- دور المتغيرات الإجتماعية : إن عدم الإستعداد، أو التدريب على بعض مناشط الحياة الإجتماعية يؤدي إلى سوء التكيف، فقدان المكانة الإجتماعية، أو تدهور الأنا بسبب الصراعات النفسية، سوء العلاقات الإجتماعية، التغيرات المفاجئة، أو المتكررة لمكان العمل، أو السكن، كلها أمور تؤدي إلى سوء التكيف ، فيظهرن السلوك السلبي في شكل عنف ظاهري .

نلاحظ من هنا أن سوء التكيف هو أحد أشكال ظهور العنف لأن مصادره نفسية لا يستطيع الفرد صدها .

تظهر صور سوء التكيف في الأشكال النفسية التالية :

1- الإحباط : هي حالة نفسية بتعرض لها الفرد بسبب عدم إشباعه لرغباته سواء كانت تلك الرغبات أو الحاجات نفسية أو اجتماعية ، و تكون الإحباطات في الأصل خارجية، أي تفرض ظروف الحياة، إن الإنفعالات التي تصاحب الإحباط بدرجات مختلفة من الإضطراب الجسمي . فقد يشعر الفرد بالخوف، أو العجز، الغضب أو القنوط، أو الإكتئاب (14). و عندما يحدث الإحباط يلاحظ على الفرد الحزن ، و القنوط، فتظهر بوادر السلوكات العدوانية مع الآخرين .

2- الإعاقة : تفسر الإعاقة بأنها تهديد للفرد، و لشخصيته، و تشمل الجوانب الفسيولوجية، و النفسية : تتمثل تلك المظاهر الفسيولوجية في وظائف العضوية: من بنية جسمية غير متوازنة، كالطول المقرط أو القصر الواضح، الإستقامة، كانهاء الظهر، أو عيب في الأعضاء،

هذه الإعاقات تسبب قلقاً لصاحبها، و تجعل سوء تكيفه واضحاً، مما يؤدي إلى القلق المسبب لإزعاج الذات و الآخرين .

فسوء التكيف يعود إلى كل عنصر في تكوين الشخصية، كما يرى كمال الدسوقي :
"قد تكون قدرة الفرد غير كافية لتؤدي بطريقة مرضية الفعاليات التي ينتظر الآخرون من الفرد القيام بها، أو التي يتوقع هو من تلقاء نفسه أن يؤديها، و عدم الكفاية قد يكون جسمياً، أو عضوياً، أو عقلياً أو اجتماعياً، من مثل الجسم، عدم توازن الفرد، نقص أجهزة الحس، والحركة ، و عدم جاذبية الجسم أو المظهر" (15).

3- الدوافع و الإنفعالات : للدوافع أهمية خاصة في الدراسات النفسية، إذ أصبحت المدارس السلوكية و الغرضية تبحث عن الغائية من السلوك للإجابة عن السؤال : لماذا ؟ إن معرفتنا للسلوك و التنبؤ به تدفعنا إلى البحث في ثلاثة مظاهر، و هي (16):

أ- كيف تكونت خبرات الفرد الماضية في علاقته بالناس و الأشياء مما أصبح عادة يسير عليها في سلوكه.

ب- حالة المنبه الحالي بما يتكون الفرد من علاقات تجعله يشبه موقفاً سابقاً.

ج- الحالة النفسية للفرد حالة حدوث الفعل الذي نريد التنبؤ بدوافعه.

نستخلص من التصنيفات الثلاثة أن الخبرات الطفلية تؤدي دروا مهما في التنبؤ بسلوكات الفرد في المواقف المتشابهة، و قد أشار نعيم الرفاعي إلى هذا الاتجاه بتذكيره لأهمية الخبرات الطفلية في البحث النفسي لسوء التكيف، حيث يقول : "ترجع هذه الأهمية إلى عمق تأثير الطفل، بما يمس أمنه و سلامته. و شدة ارتباطه بأولئك الذين ينشأ بينهم في الأسرة . كما ترجع إلى المستوى الذي يمر به من حيث نموه العقلي" (17) . يلاحظ إذن أن الطفل يكتسب عادات إشباع الدوافع باعتماده على الآخرين، و بنماذج السلوك التي ينطبع ، و يمر الطفل في مرحلة تكوين هذه العادات بخبرات مختلفة بعضها متشابه، و بعضها خاص، إن الخبرات المتنوعة هي التي كونت قاعدته الرئيسية التي تتطلب الإشباع للحاجات. و قد قدمت دراسات كثيرة من أجل معرفة أسباب اندفاع السلوك في المواقف المختلفة.

نشير ارتباطا بموضوعنا، أن الحاجات الاقتصادية تعتبر من بين الدوافع التي تظهر أشكال سوء التكيف، حيث إن تدني الحاجة الاقتصادية يؤدي إلى البحث عن الموارد بأشكال سلوكية غير متكيفة، مما يثير قلق الباحثين أمام مظاهر السرقة مثلا، و هو شكل من أشكال التحدي على ممتلكات الغير (العنف).

4- الحرمان و الذل : تكون دوافع العدوان لدى الطفل قوية و عنيفة بوجه خاص إذا ما أحس الطفل بأن الإحباط غير عادل، و لا مبرر لمواجهته. إن الحاجة الثانوية بالنسبة للطفل، و غير هامة لا تحدث أثرا عميقا يحز في نفسه، بل إن الحرمان من حقه الشرعي، كأن يحرم من الأكل، أو اللعب، أو مصاحبة الأقران، أو التمدريس أو الترويح، سيبقى هذا السلوك أثرا عميقا في نفسه، و سوف يحبط تحقيق عدد وافر من الحاجات الشخصية الأساسية، كحقه في العمل، و كسب المال الحلال، و غير ذلك من الحاجات الضرورية للعيش . ففي هذه الحالة سوف لن يجد الفرد بديلا عن تحقيق حاجاته إلا باستعمال العنف.

أما بالنسبة للإذلال، فإن الطفل عندما يصبح هدفا للسخرية أو إلى الغمز، أو يتهم بأمور هو بريء منها، أو عندما يتعرض للإستهجان، أو النقد، و التوبيخ، أو التقليل من شأنه، أو يهان و يحتقر و يذل ففي هذه الحالات سوف يعاني كثيرا بسبب الهجوم المباشر الذي ينتقص من قيمته الشخصية، و من سلامته على وجه العموم، و عليه فإن استجابة الطفل ستكون مشابهة لحالات الحرمان و الإعانة⁽¹⁸⁾.

نستخلص مما سبق أن كلا من الإعاقة و الإحباط، و دور الدوافع ، و الحرمان والإذلال هي أسباب عدم تحقيق و تأمين حاجة الفرد، و يتطلب ذلك أن تصبح الحاجة سوكا مستثارا أو موجهها نحو الهدف عند وجود العائق.

و كما يقول دولارد J.Dollard : "لكي لا نقر بوجود الإحباط، ففي هذه الإحالة على الفرد أن يلتفت إلى شيئين : 1- أن يتوقع قيام الكائن الحي بسلوكات معينة ، 2- أن هذه السلوكات قد أحبطت و منعت من الحدوث"⁽¹⁹⁾.

و يجب أن نتوقع أن السلوكات التي ستتبع هذا الإحباط ستكون بمستويات متعددة من السلبية، المرض النفسي، العدوان و العنف، أو الإنتحار بشكل من أشكاله المختلفة. إن مصادر العنف هي شخصية الفرد ككل، أي جوانبه النفسية و الفسيولوجية، والاجتماعية، و لذلك لتفادي أشكال الإحباط لدى الأطفال خاصة لابد أن نعيد تصحيح أخطاء الكبار بتوعيتهم بأهمية مواقفهم و اتجاهاتهم سواء أكانوا آباء أو مدرسين، لأنهم كذلك تعرضوا إلى الإحباطات في صغرهم و أحسوا بخطرها النفسي، فلا حاجة، إذن لإعادة تجربتها مع الصغار حتى لا يسقطوا في العنف. فالتربية السليمة هي الركيزة الأساسية لتفادي أشكال العنف المختلفة، و لا يكون ذلك بالحديث، أو الخطاب، بل لا بد من سلوك هادف يترجم الخطاب إلى فعل يحسه الفرد.

الإحالات :

- 1- بيار لاروك: الطبقات الاجتماعية، ترجمة جوزيف عبود كبه، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1973، ص: 108.
- 2- J. Launey : Classe sociale - milieu familial - intelligence , P.U.F, Parid 1980.
- J.C Forquin : la sociologie des inégalités d'éducation , revue française de la pédagogie , n° 59, 1982.
- Lewin (12) et all : Les effets de l'éducation sue les objectifs du développement . In persperctive
- 3- Pbourdien : Condition de classe et position de classe . Archives europénnées de sociologie , volVII.1966, pp 21-23.
- 4- حلمي المليحي: علم النفس المعاصر، دار الطبع غير موجودة، 1985، ص: 125.
- 5-LM. Kohn : Social and the exercice of parental authority , cité par Forquin. In op.cit
- 6- H. Hyman: Les systèmes de valeurs des diffréents calsses sociales , cité in. Forquin. op.cite. ppp 38-39.
- 7- عزت حجازي : الشباب العربي و مشكلاته، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1985، ص:132.
- 8- L.C Forquin : L'approche sociologique d ela réussite et le l'echec scolaire: In irrégularités de réussite scolaire et appartenance sociale , op.cite , pp 62-68.
- 9- S. Honoré : Les parents et l'école , le centurion, Paris 1974, p 31
- 10- L. Legrand: l'école unique a quelles conditions . scarabée Cernea, 1981, pp 67-68.
- 11- صحراوي بن حليلة : العنف في المدرسة و علاقته بالمردود التربوي، رسالة ماجستير ، قسم الثقافة الشعبية، فرعاً الأنثروبولوجية، سنة 2002 تحت إشراف د. بوغازي الطاهر .
يتضمن البحث دراسة لعلاقة العنف بالأسلوب التربوي للأسرة .
- 12- كمال الدسوقي: علم النفس و دراسة التوافق ، ص 280، دار النهضة العربية، بيروت، 1970.
- 13- كمال الدسوقي : المرجع نفسه، ص ص 35-36.
- 14- نورة الحافظ : التكيف و انعكاساته الإيجابية ، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، 1987، ص 35.
- 15- كمال الدسوقي : المرجع نفسه، ص 3.
- 16- كمال الدسوقي : المرجع نفسه، ص : 188.
- 17- نعيم الرفاعي : الصحة النفسية، دراسة في سيكولوجية التكيف، مطبعة طونين ، ط2، دمشق 1969، ص : 42.
- 18- نوري الحافظ: المرجع نفسه، ص : 39.
- 19- J.Dollard : Frustration et agression PUF, Paris 1979, p1

